سقراط الفيلسوف

الحكمة تصلب

لو كنت معي في سنة ٣٩٩ قبل المسيح في شوارع أثينا لعثرت عند سوق الخضرة والفاكهة والبدالة على كهل في الستين ، في أطمار غير مهندمة ، وليس في قدميه سيور حتى ولا نعال أحياناً ، وهو يتكلم تارة بتؤدة وأخرى برقة وأخرى بحماسة ، وقد تجمع حوله عشرات من الاثينيين من كل طبقة : من الباعة والصعاليك المستجدين والمتسولين والعمال والتجار والموظفين والأثرياء والعلماء والفلاسفة — تراهم جميعاً منصتين يستوعبون ومستمعين يتفهمون ، وذلك الزاهد المتقشف ينثر كلم الحكمة ونظريات الفلسفة ، حتى إذا سأله سائل أو اعترضه معترض أو ناقضه مناقض انفجر كالسيل يتدفق بالحجج والبراهين ويتسلط بالأقيسة المنطقية والموازين ، ولمعت الحكم من دماغه كالبرق الخاطف ، ودوت العظات من فمه كالرعد القاصف ، حتى إذا بتر خطابه سيره إلى موقف آخر انفض عنه بعض سامعيه مدهوشين ، وتبعه بعضهم مسحورين ، كأن مغنطيساً يجتذبهم إليه أو كهرباء تهزهم من حوله .

ذلك هو سقراط الفيلسوف أستاذ أفلاطون ، الذي هو أستاذ أرسطو .

وما زال ذلك الحكيم يتمشى في الشارع ، وهو ينثر هنا كلمة كأنها تعويذة ، وهنا جملة كأنها شعر ، والمسحورون يحفون من حوله ، إلى أن رأوا أنفسهم أمام هيكل مجمع الآلهة « بنثيون » . فدخله ودخل وراءه تلاميذه .

وإذا الكاهنة الموكلة بترجمة حديث الآلهة تتصدر وتتصدى كأنها ترحب بالداخلين وإذا سقراط يرى نفسه أمام تمثال زفس ، إله السموات والأرضين . فحدق فيه ثم حملق ثم قال : هل لك أيها الإله أن تنقص السماء نجماً أو تزيدها شمساً ؟

فانبرت الكاهنة قائلة : إذا كنت لا ترى ما يزيده الإله زفس أو ينقصه كل دقيقة بعد أخرى فالذنب ذنبك . لماذا تغمض عينيك أمام سطوع نوره الباهر ؟ أو أنت أعمى البصيرة ؟

فضحك سقراط ساخراً وقال : أجل ! يضع زفس شمساً من عنده في الصباح ، ويأخذ كوكباً بيسراه في المساء ، فيبقى عدد النيرات في السموات كما نراه !

ثم انتقل إلى أمام ومن آخر وتأمله وقرأ في سيمائه أنه بوسيدون إله البحر (نبتون عند الرومان) ، وقال : هل تستطيع أيها الإله أن تهدئ اضطراب البحر يوماً واحداً ؟

فقالت الكاهنة : إن الإله بوسيدون لا ينام أيها الحكيم !

فقال : أفلا يستطيع أن ينام ؟

فقالت : اليقظة سجيته ، فكيف تبطل سجيته ؟

ثم التفت فإذا به يواجه صنم « أبولو » إله الشمس وقال : كيف تطيق أيها الإله « أبولون » أن تكسف شمسك حيناً بعد آخر ؟

فقالت الكاهنة : الشمس لا تكسف وإنما ضباب آثامكم يحجبها عن عيونكم .

فقال : ألا يوجد بين العباد فرد واحد بلا آثام فتبقى الشمس ظاهرة له ؟ . أو لا يتفاوت الناس في الآثام فيتفاوت ظهور الشمس وانكسافها ؟

فقالت : متى غضب إله الشمس عم غضبه الأبرار والأشرار .

فقال : إذن ليس هذا الإله عادلاً ، إذ ينتقم من الأبرار بجريرة الأشرار .

ثم تقدم فإذا هو أمام تمثال « هيفاستوس » إله البرق والرعد .

فقال : هل يقدر هذا الإله أن يمنع البرق والرعد مدة شتاء واحد ؟

فأجابت : حاشا للإله « هيفاستوس » أن يذعن لامتحان الحكيم الصعلوك سقراط .

فابتسم سقراط وقال : وهل تستطيع الآلهة « إستريا » المنتصبة أمامي أن تبسط ميزان العدل متوازناً ، فإني أراه في يدها مائلاً .

فقالت : هي تستطيع ، ولكن أنتم لا تريدون إلا أن يبقى شركم راجحاً .

ومال وقال : هذه « أرطاميس » العذراء إلهة النور الطاهرة ، فلماذا تسمح بتقديس الفحش في هيكل أفروديت ؟

فقالت : هل عباد « أفروديت » لماذا صنعوا إلههم فجرة داعرة ؟ هل ترون هنا تمثالاً لأفروديت ؟

فقال : إذن تعرفين أيتها الكاهنة الموقرة أن العباد يصنعون آلهتهم لا أن آلهتهم تصنعهم

والتفت إلى تلاميذه وقال لهم : سمعتم قول الكاهنة المحترمة ، وعلمتم أن البشر ينحتون آلهتهم من جلدهم ثم يعبدونها . فيمكنكم أن تحطموا هذه الأصنام بعهدات حديدية ، ولا تستطيع الآلهة التي تتمثل بها أن تقيمها ثانية .

فقال أحد أتباعه : وماذا كانت الآلهة قبل أن ينحت النحاتون هذه الأصنام ؟

قال : كانت من منحوتات مخيلات الشعراء ، والشعراء يتبعهم الغاوون . فما تخيله الشاعر صنعه النحات ، وكلاهما من ذوي الخيال الفني .

وقال آخر : وماذا كانت الآلهة قبل أن يتخيلها الشعراء وينحت تماثيلها النحاتون من أهل الفن ؟

قال : كانت منظومات في عقول الحكماء ؛ وتطورت ظنون الحكماء فنشأت منها هذه الآلهة الوهمية . أما الإله الحقيقي فهو واحد لاغير ... هو المدبر هذا الكون الذي هو واحد أيضاً . وسأله آخر : أين هذا الإله الواحد يا معلم ؟ أو ناه

قال : هو روح غير منظور سرمدي ، مالىء هذا الكون العظيم ، يديره بسنن سرمدية لا تتغير .

وكانت الكاهنة كسائر السامعين منفرجة الشفتين بهتة وعجباً ، إلى أن سألها سقراط : ماذا عند الكاهنة الموقرة من نبإ لصعلوك سقراط ؟

فحدقت الكاهنة فيه قائلة : سقراط مات طفلاً ، وولد كهلاً ، وعاش جهلاً ، وسيصلب عدلاً ! ...

وعقب على قولها بقوله : «وسيموت قديساً» . ثم ابتسم وقال : وحق السماء ... صدقت لك نبوءة قبل هذه النبوءة يا كاهنة !

وخرج ، وخرج تلاميذه من حوله ، وهم يتعجبون مما سمعوه إلى أن سأله أحدهم : ما فحوى نبوءة هذه الكاهنة يا سيدنا ؟ إنها لأحجية .

فضحك سقراط وقال : إن سقراط مات طفلاً في المعرفة ، ولما صار كهلاً علم أنه جاهل لا يعلم شيئاً ، وكذلك عاش جاهلاً . ولما أوشك أن يعلم شيئاً صلب عدلاً بحكم الشريعة الدمقراطية التي يقيمها أناس ليسوا دمقراطيين .

فقال آخر : أليس الحكم الديمقراطي عادلاً يا سيدنا ؟

قال : لم أقل إنه غير عادل ، بل عنيت أن ديمقراطيتنا غير صالحة ، لأن رجالها ظالمون بل هي فساد مطبق تحت اسم ديمقراطية ، هي نكبة على أثينا ، هي بلوى تشريعية ، هي من وحي هذه الأصنام التي رأيتموها وتعبدونها . إن عبادتكم لها سخف باطل . حري بكم أن تكفوا عن العبادة الباطلة وتعكفوا على تفهم الديمقراطية الصحيحة الحقة .

فقال آخر : أتنهانا عن العبادة يا سيدنا ؟

قال : كلا ، بل اعبدوا الإله الواحد الحق الذي لا يرى .

قال : كيف نعبد ما لا يرى ؟ إنها عبادة حمقاء .

قال : بل هي العبادة الحقة الجديدة .

قال : قل لنا ياسيدنا كيف تكون عبادة ما لا يُرى ؟

فأجاب : تكون بأن تتأملوا هذا الكون إلى أن تدركوا أن له مدبّراً واحداً ، ثم تؤمنون به ، ثم تعملون بمقتضى الفضيلة فتمجّدونه بالعمل الصالح .

* * *

وهكذا كان سقراط يسير بين الشعب مبشراً بوحدانية مدبر الكون ، حاثّاً على الفضيلة والأعمال الصالحة بدعوى أن السلام لا يسود بين الأنام إلا بالمحبة المتبادلة ، والمسامحة ، والتضحية في سبيل الإنسانية ، والقناعة والتزام العدالة .

إن الطمع يؤدي إلى العداوة ، والعداوة تثير الحقد والضغينة ، والضغينة تؤدي إلى الخصام فالقتال فسفك الدماء . كل هذه تتلافاها المحبة والمسالمة والتضحية — هذه زبدة فلسفة سقراط وتعاليمه .

كان سقراط يعيش متقشفاً زاهداً مسالماً ، وما عادى إلا الطغاة الظلاّم المرائين في ادعاء الدمقراطية .

كانت أثينا في ذلك الحين في فوضى مطبقة لأن الشيوخ « Senators » كانوا فاسدين بلا أخلاق ، إلا نفراً قليلا .

* * *

كان مبدأ سقراط السياسي وغرامه الوطني أن تكون الدولة قوية متينة متماسكة متضامنة . وفي يقينه أنها لا تكون هكذا إلا إذا كان الوطنيون مثقفين ثقافة صالحة على أسس الأخلاق السامية والعدالة والحق . ولم يكن لسقراط مطمع في وظيفة أو منصب سياسي رفيع أو وضيع ، ولهذا لم يشتغل بالسياسة .

كان يعتقد أن الدولة مؤلفة من وطنيين يمكن أن يتطهروا ويسلموا من الشر بتحسين حالتهم العقلية والخلقية عن طريق التعليم والتثقيف . وبهذه الوسيلة وحدها يمكنهم أن يميزوا بين الحق والباطل تمييزاً صحيحاً .

بهذا التعليم حصر سقراط عمله الشريف ، وعليه وقف دعوته لأنه كان يثق ثقة أكيدة أن العقل البشري يستطيع أن يدرك إدراكاً جليّاً هذه الأدبيات النفسية : أي الفضيلة والحق والحقيقة والنزاهة ، إلى غير ذلك من الفضائل اللازمة لحياة الإنسان . ويمكن أن

يثقف العقل حسب هذه الفضائل . وتحث على الإنسان الرشيد أن يجتنب الآثام ويتحرر من عواقب الرذائل .

بهذه الروح البارة كان سقراط يطوف في أثينا ، وقلما خرج منها إلى الريف ؛ وكان يقف في وسط تلاميذه وأتباع فلسفته يعلمهم ويعظهم ويشرح لهم الآداب النفسية وفائدتها لسلامة الجنس البشري . وكان يعتقد أنه بهذا التعليم الشريف يرفع نفوس مواطنيه ويسدد خطواتهم الى الحياة السعيدة ؛ لأنه إذا أشبع الوطني بهذه التعاليم السامية وجّه أعماله إلى الصواب والخير والصلاح .

على أن سقراط لم يتوسّل بالدين الى هذه الغاية الصالحة ، لأنه لم يكن يعتقد أن الدين كاف لترقية الأخلاق وتقويمها ، بل كان يعتقد أن الدين الذي اصطنعه البشر لا بدّ أن يكون فاسداً كفساد صانعيه ، والمعبود الذي خلقه البشر ونحتوا تماثيله ليس في طوقه أن يخلق في البشر أخلاقاً سامية شريفة . فإذاً لا يبقى إلا المعرفة أو علم الحقيقة عن هذا الكون وطبيعة الإنسان لتدل الإنسان على الفضيلة . ولا طريق أدل عليها إلا المعرفة .

* * *

وانتشر صيته في جميع أمصار اليونان والرومان فيما حولها ، حتى إنه لما سُئل هيكل دلفي من هو أحكم الأحياء على الأرض ، أجاب : « سقراط » ، ولذلك تجمع حوله عشرات من التلاميذ والأتباع كما تجمعوا حول يسوع الناصري في اليهودية والجليل . وكان الفيلسوف أفلاطون من جملة تلاميذ سقراط المعجبين بذكائه الباهر ومبادئه السامية . ولم يكتب سقراط لنا كتباً عن فلسفته وحكمته وتعاليمه . ولكن أفلاطون كتب سيرة حياته وشوارد حكمته وفلسفته .

ولسوء الحظ أن الحكومة الأثينية أساءت فهمه ، لأنّ الأثينيين كانوا لا يزالون يتشبثون بالعقائد القديمة البالية ويأبون خلعها . أو ان الأغراض النفسانية ضربت بتعاليمه عرض الحائط ، ولذلك كفّروه .

وكان سقراط على علم تام بمعلومات عصره الكونية أو علومها كالطبيعة والفلك والرياضيات والحياة الحيوانية والنباتية على ما كان فيها حينئذ من السخف والتخرص والخرافات والترهات . ولكنه لم يعكف على البحث والتعليم فيها ، لأنه كان يعتقد أن التفلسف فيها لا قيمة له ، لأنه غير مستند إلى اختبارات وامتحانات عملية تؤيد النظريات الفلسفية . ولهذا جنح إلى الفلسفة العقلية والفلسفة الأدبية « Ethics » وتعمق وتوسع فيها ، ما أذنت له عبقريته العجيبة .

وفي سني سقراط الأخيرة كانت الحروب بين أثينا وإسبارطة في أشد احتدامها . وفي سنة ٤٠٩ قبل المسيح كان الديموقراطيون ناقمين جداً على القواد لأنهم أهملوا واجباتهم ، فهلك بسببهم عدد عظيم من الجنود والناس . فاستصدر أليكسانوس ، أحد الشيوخ أمراً بإعدامهم في الحال من غير محاكمة ، وهو أمر مناقض لروح الدستور والعدالة ، فحدث لهذا شغب في الشعب .

وكان سقراط معلم بعض الأعيان وصديقاً لهم ، ومنهم كريتياس وثيراميس وبيثودوروس وغيرهم . فشملته التهمة بتلك الكارثة بزعم أنه من أنصار الأعيان أعداء الديمقراطية ، فضلاً عن مباحثه الفلسفية المناقضة للدين والديمقراطية . فكثر أعداؤه ومبغضوه . فاستدعي للمحاكمة أمام مجلس الشيوخ ، وكان حينئذٍ خارج أثينا . فما تردد أن لبى الدعوة وهي أمام الشيوخ لكي يدافع عن نفسه . وكان في السبعين من عمره حين اتهمه المجلس عن نفسه . ولكن دفاعه تقريعاً وتأنيباً لمحاكميه حتى أثار حفيظتهم . بالخيانة العظمى في ثلاث جرائم

أولاً : أنه مارق من الدين .

وثانياً : أنه يجحد الديمقراطية التي هي دستور أثينا ويكرز ضدها .

وثالثاً : أنه يفسد عقول الشبان بإغرائهم على ارتكاب هذين الجرمين .

وكان أنيتوس « Anytus » زعيم الديمقراطيين يستجوبه ، فقال له هل تعرف أنك أفسدت دين الجمهور بما بثثته فيه من الإلحاد والمروق ؟

قال كلا ألبتة . بل بالعكس رددت الجمهور عن الضلال إلى الحق .

— أما قلت في الهيكل لأتباعك إنكم تستطيعون أن تحطموا هذه التماثيل التي تعبدونها ولا تستطيع الآلهة أن تقيمها ثانية ؟

فأجابه : أليست هي حجارة نحتها نحاتون من ذوي الفن ؟ فهل الحجارة قوة خارقة بحيث لا تتحطم تحت المطارق الحديدية ؟

فقال أنيتوس : ألا تعلم أن هذه التماثيل ليست الآلهة أنفسها . إنما هي رموز الآلهة الحقيقية . كتمثال أبولو مثلاً ليس إله الشمس نفسه وإنما هو يمثل إله الشمس .

— وهل تعني أن الشمس نفسها إله ؟

— وهل عندك شك في هذا ؟

— نعم عندي شك ، بل عندي يقين أن الشمس جزء حقير من أجزاء الطبيعة الكونية العظيمة المالئة للفضاء غير المتناهي ، فهي وسائر أجرام السماء وعناصر الأرض إنما هي مواد تتحرك بقوة الإله الواحد القوي الجبار الذي لا يرى . والشمس ...

أجرام الكون وعناصره تتحرك بحسب سنن ثابتة لا تتغير كما قررها ذلك الإله المدبر الأكوان ومسيّرها. هل تستطيع الشمس أن تطلع في غير ميعادها وتغرب في غير ميعادها الذي تقررها منذ الأزل وإلى الأبد؟ هل يستطيع نبت الربيع أن يزهر في الخريف؟ أليست كل ظاهرات الطبيعة مقيّدة بأزمنتها، ولا سلطة لها على نفسها، ولا يد للآلهة في سلوكها؟

فارتجّ على أنيتوس. ولم يحر جواباً. فانتهره سقراط قائلاً: أجب يا هذا. هل أخرسك الجهل؟ إنكم في ضلال مبين. عميت بصائركم عن الإله الحقيق.

فانتفض أنيتوس وازمهرّت عيناه غيظاً وقال: منذ الأزل وإلى الأبد تمثل تلك التماثيل آلهتنا التي عبدها جدودنا وجدود جدودنا. فهل لمارق مثلك أن ينقض عقائد الأسلاف ويغيّر دين الشعب؟ إنه لإلحاد يستحق الموت توّاً. ثم أما كنت تدحض الدمقراطية بفلسفتك العقيمة؟

— كلا. البتة. بل كنت أجحد الدمقراطيين لأنهم يدّعون الدمقراطية الفرعة في حين أنهم حكّام مستبدون ظلّام. وفي صدورهم أدمغة ساسة يدّعون أن حكومتهم كحكومة الشعب من الشعب وللشعب. وما هي إلا حكومة ذئاب في ثياب حملان. هل تريد أن تقنع هؤلاء الشيوخ أنك دمقراطي تخدم الشعب بحكمك بالموت على هذا العاقل الفاضل الواقف بين يديكم، في حين تزعمون أنكم تدينونه؟ هل أفادتكم الآلهة أيها السخفاء ديّانين للصالحين وقاتلين للأبرار؟!

فارتجّ المجلس ودوّت فيه ضجّة. بعضهم يقولون: فليُصلب، وآخرون يقولون: لا فضّ فوه. له كل الحق!

وبعد برهة بذل أنيتوس كل جهده لردّ النظام إلى نصابه. ثم استأنف الاستجواب وقال: لعلك تطمع أن تأخذ من هذا المجلس براءة بالحادك، ومرسوماً دمقراطياً بصلاحية عقيدتك الفاسدة، وجائزة على اختراعك ذلك الإله غير المنظور، أعني الإله المجهول أو بالأحرى غير الموجود؟!

فقال سقراط: لا أقبل براءة أو جائزة إلا من إلهي الموجود في كل مكان، الذي به أنت تحيا وتتحرك وتوجد، وبدونه أنت عدم. ووجوده بيّن لذوي البصائر، والسموات والأرضون تخبرنا عنه وتدلنا عليه، ولكنكم أنتم عميان القلوب فلا تبصرونه وأنتم سخفاء العقول فلا تدركونه، في حين أنه ملامس أجسادكم ومبارك نفوسكم. أعلي تحكمون بالموت أيها العميان القلوب السخفاء العقول، وأنا نور الحق المضيء فيكم.

فإن أعدمتموني يشتد حلك الظلام فيكم، فتتخبطون في عثرائكم وتتهالكون في غروركم. أما أنا فإلى إلهي العلي ألتفت وبه أسعد.

فصاح ميليتوس لقد قتلنا هذا المجرم بتبجحه وتجديفه واستكباره ....

فضج المجلس وصخب وتعالى القول: «اقتلوه» ورجع على القول: «باركوه، كرّموه وقدّسوا البرّ فيه».

ولما هدأت العاصفة سأله أنيتوس: أما كنت معلم كريتياس وصديقه وعشير السيبيادس، وموحياً إليهما مبادئك حتى أفسدت سلوكهما، فدفعتهما وغيرهما إلى هاوية الضلال؟

فقال: بلى! كنت صديق الاثنين، وما علّمتهما إلا الحق والحقيقة!

قال أنيتوس: ولكن صوابك كان سبب ضلالهما، فقاتلا الدمقراطية وزعزعا الجمهورية حتى كادت تسقط.

— لا تسقط جمهوريتكم إذا كانت قائمة على أساس الدمقراطية القويمة. وإذا تزعزعت فلأنكم أفسدتموها لسوء تصرفكم وطغيانكم، وعوّجتموها بإفسادها. إنكم تستغلون الدمقراطية لمنافعكم الخاصة أيها الطغاة العتاة الفاسدون. أأنتم أيها المجرمون تحاكمون الأتقياء الصالحين؟ كان يجب أن تُحاكموا أنتم وإن كانت المحكمة عادلة تعجزوا عن أن تبرّئوا أنفسكم. أنتم تستحقون الموت أيها المجرمون.

فضج المجلس وعاد الصخب والهرج، وكان قوم يقولون «اصلبوه»، وقوم يقولون «قدسوه. إنه يقول الحق».

وحاول أنيتوس أن يسكّن الزوبعة فلم يستطع إلى أن رفع سقراط ذراعيه وقال بصوت جهوري: صمتاً يا قوم. صمتاً، صمتاً ...

فهدأت العاصفة لكي يسمعوا سقراط فقال: إني أرحب بحكمكم مهما كان لأني أعلم أني واقف بين جهلة لؤماء، ولا عتب على الجاهل. فاحكموا بما تشاؤون. وإلهي يصفح عنكم. لا تحكمون إلا على الجسد وأما الروح فلا تصل إليها أيديكم.

وجرى الاقتراع بكل تورّع. وتورّع السيطرون عليه عن الغش. فاقترع ٢٨٠ ضد سقراط و ٢٢٠ ... فحكم عليه بأنه مجرم. وطلب خصومه أن يحكم عليه بالموت في أثناء ساعة.

وكان ممكناً أن يحكم عليه بعقوبة خفيفة. ولكنه اشمخرّ واسبطرّ وترفّع قائلاً: إنه ليس مذنباً. فإذا كانت المحكمة عادلة يعامل كرجل صالح مفضال، ويثاب على تقواه.

أخلاق الناس . ولكن ما دام المجلس يرى فضائله آثاماً فيقترح أن تفرض عليه غرامة إسمية ديناراً واحداً « mina » إرضاء لكرامة المجلس . على أن خصومه لم يستاؤوا من تفاهة الغرامة بل من إدعائه الصلاح وتبجحه بالفضيلة متعالياً عليهم . فحكموا عليه بالموت تواً .

ولما كان قانون أثينا أن لا ينفذ حكم الإعدام في أثناء إبحار السفينة المقدسة إلى ديلوس كعادتها كل سنة ، تأجل تنفيذ الحكم شهراً ريثما تعود السفينة . فبقي سقراط في السجن يستقبل أصدقاءه ويحادثهم كعادته كأنه غير محكوم عليه .

ودبّر صديقه كريتو وسيلة لفراره . ولكن سقراط أبى أن يفرّ فرار المجرم . فأصرّ على البقاء على اعتبار أن الديمونة كانت في هيئة قانونية فيجب أن تطاع، وإن كان الحكم ظالماً . أوَليس عاراً على سقراط أن يفرّ ؟!

وكان بعض أصدقائه يجتمعون به في السجن وينصحون له أن يعلن ارتداده عن عقيدته بالآلهة ومبادئه الفلسفية . فلم يذعن للنصح . وكان تلميذه أفلاطون أكثر المقربين إليه وأحبهم إلى قلبه . فقال له : إنك ياسيدنا مغالٍ في تشبثك بمبادئك . وهذه الغلواء تكلفك حياتك ثمناً لها . فيجب أن تخفف من غلوائك لكي تسلم حياتك .

فقال سقراط : إن هذه المبادىء التي تستنكرونها عليّ وتحسبونها غلواً هي أعز من حياتي . فأرجوك يا عزيزي أفلاطون أن تخفف من غلوائك في الحرص على حياتي !

فقال أفلاطون : إننا نحرص على حياتك لأننا في حاجة شديدة إليها . فهي ملك الشعب الأثيني لا ملكك . فارفق بهذا الشعب الذي ربيته وعلمته وقدته الى الحق والصلاح ، ولمّا ينضج بعد . فنخاف أنك إذا فارقته وهو لا يزال قاصراً أن يفقد ما لقنته فيتقهقر . فبالله لا تترك شعبك قبل أن ينضج .

فقال : إن ما بذلته للشعب من تعليم ونصح كافٍ أن يثقفه ويصونه من الضلال . فإن فقده فلا يستحق البقاء . فدعه يتهوّر في فساده إلى أن يفنى ، والإله قادر أن يقيم بعده شعباً أصلح للبقاء . أتريد أن أنكر تعاليمي فيثور عليّ المؤمنون بي ويحكمون عليّ بما هو أمرّ من الموت ، ويسجلون عليّ الإفك والنذالة . دعني يا عزيزي أن أتلقى الموت بطيب نفس، لأني اذا عشت قرنت الحقيقة، واذا مت تحيا الحقيقة . أليست هذه آية الإنسان النبيل الذي قضى نصف قرن يبشر قومه بسعادة الفضيلة ؟!

فتقهقر أفلاطون وخرج باكياً .

* * *

ومنا نسلم القلم لأفلاطون لكي يكتب كيف مضى سقراط ..

كتب أفلاطون يقول : كان سقراط في السبعين من عمره (٣٩٩ ق . م) حين حكم عليه بالموت . ولعله افتكر أنه قد حان له أن يموت ، وأنه يمكن أن لا يصادف حظاً أفضل من الحظ أن يموت نافعاً وطنه وقومه بموته . فقال لأصدقائه المودّعيه : « سُرّوا ولا تحزنوا . لن تدفنوا إلا جسدي » ...

ثمّ نهض واصطحب كريتو Crito صديقه الى الحمام . وأمرنا أن ننتظر ، فانتظرنا . وكنا نتكلم بحزن عميق . لقد كان كأب لنا . وسنكون بعده يتامى . وبعد برهة عاد وجلس معنا ولم يتكلم كثيراً . ثمّ أتى السجّان وجلس إلى جانبه وقال له : أي سقراط الذي أعرف أنه أنبل وألطف من جميع من جاؤوا إلى هذا المكان . لا أظنك تنطوي على ضغينة عليّ كسائر المحكوم عليهم الذين كانوا يصخبون ناقين عليّ ، ويلعنونني حين آمرهم أن يشربوا السم [1] امتثالاً لأمر الحكومة ... لا تغضب عليّ كما كان يغضب أولئك المجرمون الذين كانوا يزعمون أني أنا المجرم ، وما أنا إلا منفذ حكم القضاء . وداعاً يا سيدي . فاجتهد أن تتحمل ما لا بد منه . وأنت تعلم ما هي واجباتي .

ثم خرج السجّان والدمع ينسجم من محجريه . وقال له سقراط وهو خارج : « إني أرد لك صدى عواطفك الشريفة . وسأفعل ما أمرت به » . ثمّ وجّه الخطاب الى الحضور وقال : « ما أنبل هذا الإنسان ! كان يزورني منذ دخلت السجن . يجب أن نعمل كما أمر . إئتني بالكأس التي ينبغي أن أشربها يا كريتو . فإن لم تكن قد أُعدّت فليعدها الخادم .

وأشار كريتو الى الخادم أن ينجز الأمر ، فخرج هذا ، وبعد برهة عاد ومعه السجّان وفي يده الكأس . فقال سقراط : « أي صديقي الطبيب الخبير بهذه المهمة . ألق عليّ تعليماتك . ماذا أفعل » ؟

فقال السجّان : لا شيء سوى أن تمشي إلى أن تثقل ركبتاك فتضطجع . ومن ثمّ يفعل السم فعله . وقدم الكأس لسقراط . فتناولها من غير اضطراب ، ولا اكفهرار ، وقال للسجّان مازحاً : ما قولك إذا سكبتُ شيئاً منها على أحد الآلهة ؟

فأجاب : « لم نحضر إلا القدر اللازم لك » .

فقال : « فهمت . مع هذا يجب أن أصلي لكي تعجل الآلهة رحيلي الى العالم الآخر » ثم رفع الكأس الى شفتيه وتجرعها مبتسماً .

قال أفلاطون . إلى هنا كنا نضبط حزننا ، ولكن لما أتى على ثمالة الكأس لم نعد

---

(١) وهو عصير نبات يسمى بالانجليزية Hemlock ولعله المسمى بنجاً بالعربية ؟ وهذه كلمة فارسية في الأصل . وعصيره مخدر ويحدث السبات في شاربه

طيق صبراً ، فتدفقت عبراتنا ، ووضعت وجهي بين كفيّ وما كان كريتو أقل تفجعاً مني ، فاندفع الى الخارج ناحياً ، وتبعه أبولو دفيرس الذي ما كفَّ عن البكاء منذ دخل فصرخ صرخة رهيبة وهو يخرج . فقال سقراط . « ما هذا الصراخ ؟ لقد أبعدت السيدات من حولي حتى لا يزعجنني بولولتهنَّ . لأنه قيل إن الانسان يجب أن يفارق العالم بسلام . فاهدأوا وتصبروا » .

فلما سمعنا هذا التوبيخ خجلنا وكفكفنا دموعنا وهدأنا ، وبقي هو يتمشى الى أن قال إن ركبتيه ثقلتا ولم تعودا تحملانه . ثم اضطجع ، وجعل السجّان كل هنيهة يجس يديه وساقيه ، ثم قرص قدمه وسأله : أيحس شيئاً ؟

فأجاب : لا . ثم قال لكريتو « إني مدين للطباخ فهل تتكرم بالوفاء . فوعده كريتو بالوفاء ثم جسَّ هو نفسه فخذه فذراعه وقال : « انهما باردتان . السم دنا من القلب . دنت النهاية فوداعاً يا أصحابي » ثم بعد هنيهة شعرنا بخلجة ، فكشف الخادم الغطاء عن بدنه وإذا مقلتاه جامدتان ، فأطبق كريتو جفونه وشفتيه .

قال أفلاطون : « هكذا كانت نهاية أحكم الحكماء وأعدل العادلين وأفضل الفضلاء من كل من عرفت . انتهى كلام افلاطون .

ويقال إن سقراط كان يكتب فعل المخدر فيه الى أن صار في غيبوبة . فاذا صحَّ هذا القول يكون سقراط أول من كتب فصلاً في الأقرباذين (المواد الطبية أو علم الأدوية) .

مات سقراط ولكن ذكره شاع ، وعاش الى اليوم ، وفلسفته انتشرت بعده في الشرق والغرب . وكانت تدرس في جميع المدارس والجامعات نقلاً عن تلميذه أفلاطون الذي كتبها وعلمها . وجمهورية « أفلاطون » ليست الأ وحياً من تعاليم سقراط ، ولهذا جعل اسم سقراط مكان اسمه في المناقشات .

وتزوج سقراط ورزق ثلاثة بنين لم يكونوا على كثير من الذكاء . وكانت زوجته سليطة قليلاً ، ولا غرو لأن المرأة التي تستطيع أن تعيش مع سقراط يجب أن تكون على جانب كبير من الذكاء والمعرفة ، وإلاّ كان زوجها في نظرها شاذاً لا يطاق معشره . ومع ذلك كانت تقدره قدره فكانت تقول : « لقد منحنا كثيراً من الشهرة والسمعة الطيبة وأعطانا قليلاً من الخبز »

وفي التاريخ نوابغ كان حظهم كحظ سقراط ، منهم جاليليو الايطالي وغيره . وكفى بشبيه له أو — تنازعه — يسوع الناصري وهو يقول : يارب اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون .

نقولا الحداد